المحاضرة الثانية:

تراجم أعلام النقد في المشرق والمغرب العربي والأندلس

1-محمد بن سلاّم الجُمّحي (ت 231هـ):

هو أبو عبد الله محمد بن سلاّم ابن عبيد الله بن سالم الجمحي البصري، صاحب كتاب طبقات فحول الشعراء، مولى قدامة بن مظعون الجمّحي، مولده بالبصرة في سنة 139هـ، ووفاته في سنة 231، أو سنة 232هـ ببغداد، وابيضت لحيته ورأسه وله سبع وعشرون سنة، وعمّر نحوا من ثلاث وتسعين سنة، وسمع شيوخ العلم والحديث والأدب، وسمع منه شيوخ العلم والحديث والأدب. وروى عنه أحمد بن يحيى ثعلب، وأبو حاتم، والرياشيّ، والمازنيّ، والزياديّ، وأحمد بن حنبل، وابنه عبد الله بن أحمد، ويحيى بن معين، وأبو بكر بن أبي خثيمة، وأبو خليفة الجمّحي، وغيرهم من الأئمة. أما شيوخه فمنهم: أبان الأعرج، أبان بن عثمان البَجَليّ، إبراهيم بن حبيب بن الشّهيد، الأصمعي، بشّار بن برد، أبو بكر بن محمد بن واسع السُّلَمي، أبو بكر الهذلي، خلف الأحمر، سعيد بن عُبيد، أبو زيد الأنصاري، المفضّل بن محمد الضّبي، يونس بن حبيب وغيرهم.

وكان ابن سلاّم من أهل بيت لهم في العلم باع، فأبوه سلام بن عبيد الله بن سالم الجمحي، روى عنه في مواضع كثيرة من كتاب طبقات فحول الشعراء، وأخوه عبد الرحمان بن سلاّم الجمحي أحد رواة الحديث. ومن ولد محمد بن سلاّم: عون بن محمد بن سلاّم.

وقد ذكر ابن النّديم في الفهرست: أن ابن سلام ألّف من الكتب: كتاب الفاصل في ملح الأخبار والأشعار، كتاب بيوتات العرب، كتاب طبقات الشعراء الجاهليين، كتاب طبقات الشعراء الإسلاميين، كتاب الحلاب وأجر الخيل، وقال ياقوت في معجم الأدباء: وألّف كتابا في طبقات الشعر، وله غريب القرآن.

2-الجاحظ (ت255هـ):

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الملقب بالجاحظ، لجحوظ في عينيه. ولد بالبصرة سنة 160هـ-، سنة 775م، وتوفاه الله فيها عام 255هـ-، سنة 869م. في بني كنانة، نشأ نشأة يتيمة بائسة، فذاق من الحياة مرها، ومن العيش أشده خشونة وشظفا...لكن ذلك لم يفتّ من عضده، ولم يمنعه من التردد على كتاتيب البصرة، ومساجدها، وحلقات العلم بها، وعلى المربد سوق الثقافة يومذاك، مخالطا المسجديين وكبار العلماء وأصحاب الرواية واللغة، ساعيا حثيثا من أجل الارتواء من المعرفة، ومن أجل إشباع فضوله العلمي. ثم إنه راح يتنقل في طول البلاد وعرضها، فقصد بغداد عاصمة الخلافة العباسية ليتصل بالخليفة المأمون الذي ولاه ديوان الرسائل لأيام ثلاثة فقط، سرعان ما أُعفي بعدها أو استعفى من منصبه ليتابع دراساته وأبحاثه. منصرفا إلى وضع العديد من المؤلفات.

توافر للجاحظ عاملان مهمان أسهما في تحديد شخصيته العلمية: الأول نهم لا يوصف إلى قراءة كل ما وقع تحت يده من كتب؛ حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين، فيبيت فيها للنظر. والثاني، عصر علمي يزدهي بأشهر علماء الأمة في كل فرع من فروع المعرفة، وهكذا أخذ الجاحظ اللغة عن أشياخها الكبار: الأصمعي، وأبي عبيدة، وأبي زيد الأنصاري، وأخذ النحو عن الأخفش الأوسط. وأخذ الحكمة عن صالح بن جناح اللخمي، وتفقه في الاعتزال على شيخ المعتزلة في ذلك العصر أبي إسحاق إبراهيم بن سيار النظّام.

لم يوهب الجاحظ صباحة في الوجه، لكن عُوض عنها بذكاء خارق، وذهن حاد، وطبع سمح، وظُرف عجاب، وعقل مستنير ألمّ بثقافة العصر، وهضم معارفه وعلومه، فانعكس أثر ذلك مؤلفات في شتى الموضوعات الأدبية والاجتماعية والدينية؛ حتى إن عدد مؤلفاته، وكما ذكروا ليقارب الثلاثمائة والستين ما بين رسائل صغيرة وكتب كبيرة. وقل أن تجد فرعا من فروع المعرفة في ذلك الوقت لم يؤلف فيه الجاحظ.

وأشهر كتبه الكبيرة: البيان والتبيين، الحيوان، العثمانية، البخلاء، التاج في أخلاق الملوك. ومن كتبه ذات الأهمية الكبيرة، كتاب في (نظم القرآن). يقول عنه ابن الخياط: ولا

يُعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه، وأنه حجة لمحمد على نبوته غير كتاب الجاحظ، وهو مفقود حتى الآن.

ويعد كتاب (البيان والتبيين) من الكتب الثمينة جدا لما احتوى من خطب النبي صلى الله عليه وسلم، وخلفائه الراشدين، وصحابته والتابعين ممن عاش في القرنين الأول والثاني الهجريين. كما أنه ضم العديد من المختارات الشعرية الناتجة عن ذوق أدبي راق امتلكه الجاحظ؛ فكان دليله في انتقاء الأبيات الشعرية لشعراء جاهليين وإسلاميين، ومولَّدين كبشار بن برد، وأبي نواس، والعتابي، وأبي تمام وغيرهم من الشعراء المتأخرين الذين عاصرهم معتمدا في ذلك على إيراد ترجمة لهم أو ذكر بعض الجوانب من حياتهم، ثم تفسير بعض المفردات الواردة في هذه الأبيات الشعرية مستشهدا من خلالها على الكثير من القضايا الأدبية والنقدية.

أما كتابه: الحيوان. فيعد من أهم كتب الجاحظ وأغزرها مادة، تناول فيه العديد من الأمور العلمية المتعلقة بالحيوان، بالإضافة إلى الكثير من الآراء النقدية والخطب والأمثال، والأشعار والنوادر بأسلوبه الذي اشتهر به، وهو الجمع بين الجد والهزل، بغية الترفيه وإبعاد الملل.

وضع الجاحظ كتابه في سبعة أجزاء. كتب في المقدمة رده على من عاب طريقة تأليفه، ثم في الجزأين الأول والثاني تحدث عن خَلْق الإنسان والحيوان، وتناول في الأجزاء المتبقية مختلف أنواع وأجناس الحيوان موردا بين الحين والآخر مواضيع متنوعة عن الألوان والماء والنصارى، والمجوس، واليهود، بالإضافة إلى الآراء النقدية والأدبية التي بثها في طيات هذا الكتاب.

وقد يتلمس الدارس لأعمال الجاحظ خلفية مذهبية تمثلت في الفكر الاعتزالي، كانت وراء معظم آرائه النقدية. ويعتبر إمام المعتزلة إبراهيم النظّام من أبرز الشخصيات التي تأثر بها الجاحظ في مسيرة حياته. فقد تأثر الجاحظ بأراء المعتزلة، وكان من أبرز رجال هذا

المذهب أيام المعتصم والمتوكل، خاصة وأنه تميز عن الباقين بمطالعته للكثير من كتب الفلاسفة مما أهله إلى الانفراد بآراء في العديد من المسائل.

والتف حوله العديد من أصحابه، مشكلين ما يُعرف بالفرقة الجاحظية. ومما عُرف عن الجاحظ قوله: " إن المعارف كلها ضرورية طباع، وليس شيء من ذلك من أفعال العباد، وليس للعباد كسب سوى الإرادة، وتحصل أفعاله طباعا." كما اعتبر أن أهل النار " لا يخلدون فيها عذابا بل يصيرون إلى طبيعة النار، وكان يقول النار تجذب أهلها إلى نفسها دون أن يدخل أحد فيها".

تميز الجاحظ بالعديد من الآراء في مختلف المواضيع، وكانت أهمها التي بحث فيها مكمن إعجاز القرآن. وعلى الرغم من ضياع أهم الدراسات في هذا المجال كتاب (نظم القرآن) الذي أشرنا إليه سابقا. إلا أن خلاصة فكر الجاحظ يمكن استخلاصها من كتبه المتبقية.

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن نزعة الكلام وفكر الاعتزال هو الغالب على آراء الجاحظ في كل مبدأ أراده لإثبات قدرة الخالق، وإعجاز القرآن؛ فتعريفه لكلام الله بأنه مجموعة أصوات هو أصل لنظريته في قضية اللفظ والمعنى. ومن هذا المنطلق حاول علماء المعتزلة البحث في سبب إعجاز القرآن؛ فاعتبروا أن الكلمات المتكونة من هذه الأصوات هي موطن الإعجاز.

وانطلاقا من هذا الفكر، جاء تعريف الجاحظ للصوت بأنه " آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع وبه يوجد التأليف". ثم جاءت نظريته حول اللفظ والمعنى ملخصة في عبارته المشهورة: " والمعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والبدوي، والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولته، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من الصبغ، وجنس من التصوير". ويفهم من هذه العبارة إرجاع السبق والمزية للفظ على حساب المعنى، ويبدو فكر المعتزلة في إثبات إعجاز القرآن الكريم بكلماته لا بمعانيه واضحا في نظرية الجاحظ لثنائية اللفظ والمعنى.

3-ابن قتيبة (ت 270هـ):

علم من أعلام الإسلام، وإمام حجة من أئمة العلم، وكان لأهل السّنة مثل الجاحظ للمعتزلة، فإنه خطيب أهل السنة، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة. قال محمد بن إسحاق المعروف بابن النديم في كتابه الفهرست: ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكوفي، مولده بها، وإنما سُمّي الدِينَوَرِيَّ لأنه كان قاضي الدِينَوَر، وكان ابن قتيبة صادقا فيما يرويه، عالما باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه والشعر والفقه. كثير التصنيف والتأليف، توفي سنة سبعين ومائتين. وله من الكتب:

1-كتاب معاني الشعر الكبير، ويحتوي على اثني عشر كتابا، منها كتاب الفرس ستة وأربعون بابا، كتاب الإبل ستة عشر بابا، كتاب الحرب عشرة أبواب، كتاب الديار عشرة أبواب، كتاب الرياح أحد وثلاثون بابا، كتاب السباع والوحوش سبعة عشر بابا، كتاب النساء والغزل باب واحد.

2-كتاب عيون الشعر، ويحتوي على عشرة كتب، منها كتاب المراتب، وكتاب المحاسن.

3-كتاب عيون الأخبار ويحتوي على عشرة كتب منها كتاب السلطان، كتاب الحرب، كتاب الزهد، كتاب العلم.

4-كتاب التفقيه.

5-كتاب الحكاية والمحكى.

6-كتاب أدب الكاتب.

7-كتاب الشعر والشعراء. وغيرها كثير من الكتب المهمة.

سكن ابن قتيبة بغداد وروى فيها كتبه إلى حين وفاته. وقيل إنه أكل هريسة فأصابته حرارة، ثم صاح صيحة شديدة ثم أغمي عليه إلى وقت السحر، ثم مات.

4-ابن طباطبا العلويّ (ت 322هـ):

هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن طباطبا العلوي، يرجع نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، و"طباطبا" هي الصفة التي لحقت إبراهيم بن إسماعيل العلوي، إذ أنّه كان يلثغ بالقاف فيجعلها "طاء".

ولد بأصبهان ونشأ وتأدب فيها ولم يغادرها إلى غيرها كما يقول ياقوت في معجم الادباء عنه، وأصبهان هذه بلدة جميلة فاتنة من أعلام المدن وتشتهر بمناخها وهدوئها، وصفائها.

أما تاريخ ولادته فلم يعرف بالتحديد إذ لم تشر إليه المراجع التي ترجمت له، ولكنه يرجح أنها كانت قبل النصف الثاني من القرن الثالث الهجري.

وقد أقام ابن طباطبا علاقات مع أكثر أدباء عصره واشتهر بالذكاء، والفطنة وصفاء القريحة وجودة النظم، وقد تحدثت كتب التراجم عن فضله وعلمه، وأدبه وبراعته في نظم الشعر إلا أنّ ديوانه لم يصل إلينا ولكنّ العلماء أمثال الثعالبي والراغب الأصفهاني وياقوت الحموي والحصري، وابن الاثير قد ذكروا العديد من أشعاره.

ومن مؤلفاته عيار الشعر، وكتاب في العروض، وكتاب في المدخل في معرفة المعمّى من الشعر، وقد توفي الرجل سنة 322هـ.

5-قدامة بن جعفر (ت337هـ):

ولد قدامة في البصرة نحو عام 260هـ، أو عام 276هـ، في خلافة المعتمد العباسي. وقرأ وتعلم، وتثقف على والده وعلى المبرد وغيره، واجتهد وبرع في البلاغة والحساب، واشتهر بنقد الشعر، والكتابة، والبلاغة.

عاش في خلافة المعتمد والمعتضد، والمكتفي والمقتدر العباسي، وأدرك مطلع حكم آل بويه، وتولى مجلس الزمام لآل الفرات.

وألف كتبا كثيرة منها: نقد الشعر، وكتاب السياسة، وكتاب الخراج، وكتاب الرد على ابن المعتز فيما عاب به أبا تمام، وكتاب صناعة الجدل، وكتاب زاد المسافر، وكتاب الرسالة في أبي علي بن مقلة وغيرها.

توفي قدامة في بغداد سنة 337هـ.

6-ابن شهيد (ت 426هـ):

هو أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن عيسى بن شهيد أبو عامر: أشجعي النسب من ولد الوضاح بن رزاح الذي كان مع الضحاك يوم المرج، ذكره الحميدي وقال: إنه مات في جمادى الأولى سنة ست وعشرين وأربعمائة بقرطبة ومولده سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة، وأبوه عبد الملك بن أحمد شيخ من شيوخ وزراء الدولة العامرية ومن أهل الأدب والشعر، وجدّه أحمد بن عبد الملك ذو الوزارتين من أهل الأدب وكان في أيام عبد الرحمان الناصر له شعر وبديهة ولم يخلف لنفسه نظيرا في علمي النظم والنثر

وهو من العلماء بالأدب ومعاني الشعر وأقسام البلاغة، وله حظ من ذلك. بسق فيه، ولم ير لنفسه في البلاغة أحدا يجاريه. وله كتاب" حانوت عطار" في نحو من ذلك، وسائرُ رسائله وكتبه نافعة الجد كثيرة الهزل، وشعره كثير مشهور.

7-ابن حزم (ت 456هـ):

هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن سفيان بن يزيد وكنيته أبو محمد، وشهرته ابن حزم. ولد بقرطبة بالجانب الشرقي، سنة ثلاثمائة وأربع وثمانين.

وجدّه يزيد كان مولى ليزيد بن أبي سفيان، فهو فارسي من أسرة فارسية، قرشي بالولاء، فقد رحل جده الأعلى مع البيت الأموي إلى الأندلس. فكان من أسرة لها شأن في الوزارة في حكم الأندلس.

واشتغل في السياسة ولكنه علا بعلمه، فقد تثقف في فلك الحياة الهنية بما يتثقف به الناشئ في وسط بيوت الأمراء والوزراء، فحفظ القرآن وتعلّمه، وطلب علوم الدين، وحفظ الشعر، واجه إلى أفاضل الشيوخ يغترف من علمهم.

ولم يعرف التاريخ قبل ابن حزم عالما جمع بين ضروب العلم المختلفة ما جمعه ابن حزم. فهو الكاتب الأديب. وله خوض في علوم الفلسفة والمنطق، وكان جريئا فيها كما كان جريئا

في غيرها، وهو المحدث الذي يجمع شتات الحيث، وهو الفقيه الذي أحيا علم الكتاب والسنة، والعالم بالملل والنحل في الإسلام وغير الإسلام.

ومن آثاره: الفصل في الملل والأهواء والنحل، والعديد من الرسائل في مواضيع مختلفة.

8-حازم القرطاجنّي (ت 684 هـ):

هو أبو الحسن حازم بن محمد بن الحسن، اشتهر بنسبته إلى مسقط رأسه فعُرف بالقرطاجنّي، قضى طفولته وشبابه في عيش رغد، متنقلا بين قرطاجنة ومُرسيّة، مقبلا على التعلّم، جادّا في الدروس. حفظ القرآن على يد شيوخ من قرّاء بلده، ووجد من والده خير ملقّن وموجّه لمعرفة العربية وتعلّم قواعدها والإلمام بطائفة من قضايا الفقه والعلوم الحديثة. كان كثير التردد على مرسية للأخذ من شيوخها، وهناك درس كثيرا من أمهات الكتب. وكذلك اتجه إلى غرناطة واشبيلية طلبا للعلم.

اهتم حازم بدراسة العلوم اللغوية والشرعية، والعلوم العقلية، فدرس الخطابة، والشعر، والمنطق، وأقبل على مصنفات ابن رشد، وكتب غيره من الفلاسفة كالفارابي وابن سينا.

تتنوع مؤلفات حازم بين نتاج أدبي، ومصنفات في النحو والبلاغة والنقد. فلقد كلف منذ شبابه بنظم الشعر يرفع به مدائحه إلى الأمير المؤمني الموحدي الرشيد. ثم إلى عدد من رجال البيت الحفصي.

والغالب على الظن أنّ أشعار حازم لم تجمع في ديوان قط. أما عن مصنّفاته النقدية والبلاغية فقد ترك كتبا منها ما هو مفقود ككتاب " التجنيس"، وكتاب آخر في العروض وعلم القافية، أحال عليه حازم في كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" المتوفر في المكتبة العربية.